المحاورات السقراطية

بقلم الاستاذ ا . د . لندساى

تعريب

الاستاذ ابراهيم عبد الحميد زكى

قد يبدو لأول وهلة أننا ما ذكرنا هذه العبارات (١) إلا لنبين فقط ضعف المحاورات السقراطية من الوجهة الفنية ، وما تعكسه من صور الحياة العملية كما كانت تبدو فى طرقات أثينا يومئذ . إلا أننا سنذكر فيما يلى حقيقة ما نرمى اليه .

من الواضح أن عناية سقراط بشئون الانسان كانت لا حد لها . ولذا فاننا عندما نراه يعالج شئون شخص سواه بما وهب من عقل راجح ، وفكر ثاقب ، لا نتردد فى القول بأنه لا بد مدل اليه بالكثير من الملاحظات القيمة ، التى تنير له سبيل عمله ، فضلا عما يسوقه اليه من الاسئلة الايحائية العديدة .

وهكذا نجد سقراط كما أراد أن يصوره زينوفون أى الرجل الذى « كلما حادث شخصاً ممن يشتغلون فى الفنون والصناعات ابتغاء الكسب أقام الحجة على أنه (أى سقراط) ذو فوائد جمة ونفع جزيل له » وهو الذى نراه يتحدث مع بارهاسيس المصور ، وكليتو المثال ، و بستياس صانع الدروع . أو بمعنى آخر انه كان رجلا قوى الملاحظة ، واسع التجربة ، قد خلق و يسر لأن يدلى بالنصائح للشباب الجاهل بشئون هذه الحياة . ولا جدال فى أن هذه هى الناحية التى أعجب بها زينوفون من سقراط .

على أننا اذا أنعمنا النظر فى هذه العبارات لا نلبث أن نرى فيها ما يرشدنا الى جوهر تعاليم سقراط . فقد كان يتحدث عن الاسكافيين والنجارين لا ليحسن صناعة هؤلاء أو أولئك ولكن ليجعل أساليبهم نبراسا له . وفى الحديث السالف الذكر (٢) ترى هيبياس يقاطعه حين يقول : إن النجارين يعرفون صناعتهم ، وفى حيز قدرتهم أن يعلموها غيرهم ، ولكن من سوء الحظ أن الحال ليست كذلك مع الرجال العادلين . وقد كان سقراط يتحدث دائما عن النجارين

---

(١) راجع مجلة المعرفة صفحة ٥٦٧ الجزء الخامس

(٢) راجع مجلة المعرفة صفحة ٥٧٠ الجزء الخامس

والاسكافيين . اذ كان يكثر من موازنة معرفة الناس لصناعتهم بجهلهم للحياة أو الفضيلة . وفى آخر عبارة اقتبسناها من أرسطو تراه يحاول أن يبين أين أخطأ سقراط فى هذه الموازنة بين الفضيلة والصناعات .

ويقول سقراط فى الابولوجيا لأفلاطون : إنه وجد الناس جميعهم جاهلين عدا الصناع فهم يعرفون صناعتهم ، ولكنهم يفسدون معرفتهم هذه بظنهم أنهم يعرفون أشياء أخرى كثيرة هم فى الحقيقة جاهلوها .

وإننا لنجد سقراط يتساءل من غير انقطاع فى محاورات أفلاطون : من يستطيع أن يعلم الفضيلة كما يعلم النجار النجارة ؟ كل فرد يستطيع أن يقول : ماهو الدواء؟ فلماذا لا تستطيع أن تقول بالمثل ما هى العدالة ؟

فأنت ترى أنه يتخذ إجراءات الصنع العلمية والعملية نموذجا له على الدوام ، ويسأل لماذا لا يتبع هذا فى الأخلاق ؟ فقد كان يتحدث عن النجارين والاسكافيين لان الشبه بين الفضيلة والصناعات كان أهم جزء فى تعاليمه .

وفى هذا الذى ذكرنا كان سقراط ابن أثينا البار . وفى محاورة « بروتاجورس » لأفلاطون يسمى هيبيارس أثينا « موطن الحكمة الأغريقية ومذبحها » وقد كانت غاية بركليس العظمى أن تصبح أثينا « مدرسة الهلاس » وخلال مرثيته العظمى حيث تقع هذه الكلمات يصر بركليس على أن أعظم مجد للاثينيين هو إيمانهم بالمشورة والتبصر واقتناعهم بأنه مهما كان نصيبهم من حكم القدر ، فان من الأفضل على الدوام أن يكونوا متروين فى أمرهم . ولا شك أن التبصر والتدبر كانا أعظم الفضائل الأثينية .

وخطب بركليس فى كتاب « توكيديدس » عن الحرب « البلبونية » تعبر عن وجهة نظر فى الحياة شبيهة كل الشبه بما لسقراط . فهناك فى الحرب ما لا يمكن التنبؤ به . إذ الأمر فى النهاية بيد الآلهة ، ولكن ذلك لا يمنع وجود الحقيقة القائلة بأن ثمة مجالا لاظهار الفرق بين المهارة وبين الجهل ، وبين التبصر والاهمال .

بمثل هذا ميز سقراط بين ما هو فى قدرة الانسان وما ليس فى قدرته . وقد ذكر أن ثمة أشياء ليست فى قدرة الانسان ولا يجدى البحث فيها شيئا . بل يتحتم عليه أن يتركها للآلهة ولكن إذا أعطينا ما لله لله كان لزاما علينا أن نقبض بشدة على ما للانسان . والانسان معنى بما يلزم أن يفعله ، وكيف يفعله وماذا يختار ؟ وفى هذه الحال تصبح المعرفة قوية ضرورية .

ويشبه أفلاطون فى كتاب « القوانين » حياة الانسان بقارب فى زوبعة . فالزوبعة قد تتغلب على أقدر النوتية وأمهرهم ، ولكن الأفضل على الدوام أن يكون ربان السفينة على معرفة حسنة بادارة سكانها .

واذا كان الأثينيون يحبون الحكمة . فان ذلك راجع إلى أنهم كانوا قوما صناعيين ماهرين وإلى أن الفرد منهم كان يعرف الشيء الذى هو خير والذى هو شر ، ويثق كل الثقة بأن الآلات بمجردها لا تعلم طريقة استعمالها ، وبأن النجاح لا يأتى إلا عن طريق التعلم والمعرفة .

وإن سقراط لياجأ دائما إلى أولئك الذين يعرفون الفرق بين الخبير وبين الهاوى ، ويسأل الناس : كيف يرجون النجاح فى الحياة بدون أن يعرفوا القاعدة والأساس ، اذا كانوا لا يفوزون فى ميدان الصناعة إلا إذا ألموا بهما إلماما حسنا . ومن ذا الذى يبدأ فى عمل من غير معلم ؟ وأين المعلم الذى يعلم الناس فن الحياة ؟

وإنه لمن الميسور أن نرى كيف نشأ تعقل سقراط من موقفه هذا ، فجوهر كل صناعة متقنة هو أن تعرف ما تريد أن تنتج . ولا يعقل ان امرأ يبدأ في عمل لا يعرف ماهيته . فعليه أن يعرف أولا ما يراد ، مثل حجم الحذاء أو أوصاف السفينة . وعندئذ يأخذ فى البحث عن الوسائل التى تيسر له الوصول الى غايته ، فاذا حصل على معرفة الغاية والوسيلة لعملها ، فليس ثمة ما يعوزه لاتمامها . ولقد طبق سقراط هذا المبدأ الفعال على الحياة . وبما أن الناس جميعا يبحثون عن الخير الذى هو غاية الحياة فلزام عليهم أن يعرفوا أولا ماهيته ، وثانياً ما يسببه . وبمثل هذه المعرفة يمكن التمييز بين الرجل الطيب وبين الردىء ، كما يمكن التمييز بين الصانع الماهر والصانع الردىء .

ومن هنا كان تناقض سقراط المزدوج :

فهو اولا يقول : إن الرجال يخطئون لجهلهم ، إذ الواضح ان الناس جميعهم يرغبون فى الخير واذا قصروا عن الحصول عليه ، فذلك ولاشك راجع إلى انهم لم يدركوه ادراكا واضحا ، او انهم اتخذوا الوسائل الخاطئة للحصول عليه .

وثانياً يقول : إن الانسان لا يستطيع ان يكون خبيرا بدون المعرفة والمهارة ، مع انه قد ظهر من سؤال الناس أن ليس لشخص منهم شيء من المعرفة

ولقد جرت العادة بأن تحل مشكلات سقراط بأن يذكر انه قد تجاهل الارادة . ولما كان هذا النقد الذى يوجه اليه لم يوضح ما هى الارادة ، فلا جدال فى أنه لم يقل اكثر من ان سقراط

قد تجاهل شيئا ما . وهذا واضح من التناقض الذى تقودنا اليه تعاليمه .

واذا كان لنا ان ننقد تعاليمه هذه ، بان نختبر محاوراته وندرسها . فلزاماً علينا ان نبحث لماذا لا يمكن ان نلجأ فى سهولة الى الحذق والمهارة فى الحياة كما نلجأ اليهما فى الصناعات ؟

وفيما يلى يتلخص نقد ارسطو لتعاليم سقراط :

فى الصناعات يسلم بالرغبة فى الغاية المنشودة . فليس يعنى الاسكاف مثلا ما اذا كان الناس يحسنون صنعا بلبسهم الأحذية او لا ، فهم يقررون ذلك والصانع يسلم بتلك الغاية التى تقضى بها حاجتهم .

ونزيد على ذلك ان الغاية هنا يتيسر وصفها بوضوح . ويمكن ان يشار اليها . وان تقاس فمن السهل مثلا ان تعرف اذا كان الحذاء مناسباً للقدم او لا ، واذا كانت السفينة بالمقاييس المطلوبة والحجم المعين او لا وهلم جرا .

اما اذا كنا بازاء الحياة بأجمعها . فعلينا ان نتبصر ونتظر فى الرغبة فى اية غاية . او بمعنى آخر ان نجد شيئا هو خير لذاته . ومهما تكن غاية الحياة فلا شك انها لا تقاس ولا يمكن ان يشار اليها . كما انه من المستحيل ان نلجا فى سلوك الانسان الى ما يتطلبه الحذق الذى له من الشان فى الصناعات ما لا . اذ نكون هنا بازاء اسئلة لا يمكن ان تقوم بحال فى الصناعات .

واذا قلنا مع سقراط اننا اذا عرفنا الخير فعلناه . فواجب علينا ان نعطى للمعرفة معنى جديدا . معنى ينطوى على عنصر من الاستحسان أو الاهمية . وعلى ذلك فلن تكون هذه المعرفة من ذلك النوع الذى يتيسر تعليمه بالأسلوب العادى .

وعلى هذا النمط توسع افلاطون فى تناقض سقراط من حيث جبرية الشر . فهو يقول فى « القوانين » ان الواجب علينا ان نميز بين نوعين من الجهل . فقد نكون جاهلين بان هذا الشىء خطأ وذاك صواب . وهذا النوع من الميسور ان يعالج بالارشاد . وقد نكون جاهلين هذا النوع الخطير من الجهل والذى لا يعالج . الا وهو الظن بان فعل الخطأ لا يضير ولا يهم . وهذا النوع الثانى لا يمكن ان يعالج بالارشاد .. والمعرفة التى تقابله ليست كتلك المعرفة التى يحظى بها الصانع

ويؤيد افلاطون قول سقراط . ان الفضيلة هى المعرفة باقلاعه عن معنى المعرفة كما كان يقصد بها فى الأصل عند هذا القول .

ابراهيم عبد الحميد زكى